أبادماك

شك، وقلق، وعيون اصطبغت بالأحمر.. لمْ تذق طعم النوم.. فالسير بين كثبان الرمال شاق.. مُنهك.. أثقال تَحمِلها أقدامي أثناء خطواتي المستمرة.. جاءني صوت عميق ظننته لوهلة من جوفي:

ـ اقتربنا يا أستاذة.

مصدر الصوت شاب ثلاثيني، نوبي، جميل المَحيا، ابتسامته الصافية تَحكي عن أصله الطيب، (إسماعيل) دليلي ومُرافقي، الوقت يَمضي فقد سرنا لمسافة طويلة في الصحراء.. كم أنهكني التعب والإرهاق.. شعور مر.. ألَّا تتغير في عينيك الألوان!

ـ لا بد أنْ نسرع الخطى أكثر فالشمس بدأ يبرز ضيها في الأفق.

هكذا ردد (إسماعيل).

تحركتُ تَنْفِيذاً لطلبه فاصطدمتْ قدمي بصخرة لمْ أرها.. يا للألم.. صرختُ من شدته.. فضوء الكشاف لمْ يظهرها أمامي.. رددت على (إسماعيل) بنبرة متوترة:

ـ حاضر، سنسرع.

أومأ برأسه موافقًا، ثم نظر إلى حذائي يطمئن على إصابتي.. كاد أنْ يسألني لكنَّه فضَّل الصمت، مسحت حذائي بيدي، ونهضت مبتسمة.. لا بد من السير مجددًا، فالوقت يداهمنا فعلًا، عاد (إسماعيل) للحركة أمامي.. لا أعلم كيف اعتاد السير بهذا الثبات! ربما من التكرار.. أبناء الصحراء يحفظونها عن ظهر قلب، خطواتهم فيها بلا دليل أشبه بالسير في طريق مرصوف في وَضح النَّهار، ولكن هذه المسافات، أنا لا أصدِّق أني قطعتها، ١٧٠ كيلو مترًا شرق الخرطوم.. قطعت أنا و(إسماعيل) منها خمسة عشر كيلو مترًا سيرًا على الأقدام..لا أتذكر أنّي قطَعت مثلها مِن قَبْل.. فخورة بنفسي على هذا الاضطرار... كانت خيوط الشمس تنسِج في السماء مشهدًا أسطوريًا وسط سواد الظلام.. تتجلّى روح الخالق ـ تعالى ـ في مخلوقاته.. ماهذه الروعة! ما كل هذا البهاء والإبداع؟! سبحانك ربي.. ما أعظمك!!

ـ وصلنا اخيرًا.

صوت (إسماعيل) يقتحمني مرةً أخرى، نظرت له فوجدته مبتسمًا، كما كان طوال الرحلة، غير أنَّه يشير في ذات الوقت بيده.. وجَّهت بصري حيث أشار بيده اليُمنى فإذا بي أمامه.. على بُعد أمتارٍ قليلة.. أخيرًا وصلنا.. أخيرًا أنا أمامك.. مَعبد أبادماك.

المَعبد الأثري العتيق، ومن خلفه الشمس ترمي بضفائرها على حجارته الشامخة لآلاف السنين.. شهق بصري نزولًا على رغبة الجمال.. فسطوة التاريخ.. وعبق سحره الذي يملأ صحراء أرض الكوش.. أرض الفراعنة السُّود.. مشهد خلّاب قد لا يَتَسنَّى للكثير رؤياه.. ركضتُ بسرعة حتى وقفت أمامه.. فسَرَت قشعريرة في جسدي حتى العظام.. من فرط مارأيت.. فجدران المعبد منحوت عليها الإله (أبادماك) على هيئة أسد

بثلاثة رءوس وأربعة أذرع.. قالت كتب التاريخ التي اطلعت عليها أنَّ الإله الأسد المحارب (أبادماك) تجسيدًا للملك العظيم (نتاكاماني) زوج الملكة العظيمة (أمانى تاري) والتي هي ابنة الملكة العظيمة (أمانى شكتو).. عُرف عنه أنَّه محارب شرس وشجاع.. التجسيد بثلاثة رؤوس كنايةً عن إبصاره في كل الاتجاهات وإحاطته بكلِ ما يدور حوله، والأذرع المتعددة له ترمز إلى قوته وبطشه بالأعداء وتحكّمه وإدارته لكل ما في البلاد، عَبَده الكوشيون، والنوبيون، والمرويون، وحتى المصريين القدماء.

ـ هذه هي النقطة يا أستاذة.

للمرة الثالثة يوقظني صوته الأجش.. تطلعت له في دهشة مستغربة كلامه، ثم استوعبت مقصده.. فأجبته:

ـ حسنًا، هيا احفر يا (إسماعيل).

أخرج أدوات الحفر التي أحضرها معه.. الإزميل، والمجرفة، والجرافة، وجهازًا إلكترونيًّا لكشف مكونات التربة، وبدأ يحفر بجوار بوابة المعبد.

نظرتُ إلى قرص الشمس الذي بدا في السماء فانتابني القلق من الوقت الذي يداهمنا.. صرخت فيه:

ـ أسرع قليلًا، لا نملُك الوقت.

تجاهَل (إسماعيل) الرد عليّ، واستمر في الحفر بصمت، تابع لدقائق ثم توقف.

رأيت يده اليُمنى تمتد داخل الحفرة حتى غطت ذراعه كاملًا، ومال بجسده باتجاهها، ثم أخرج يده ببطءٍ وعلى وجهه ابتسامة سعادة لم أرها

منه منذ انطلقنا في رحلتنا هذه، أمعنت النظر لذراعه مرتقبة ما سيخرج به، فإذا به يُخْرِجُهَا.. إنَّها في يده.. المخطوطة في يده.

أسرعت وحملتها مثقَلة بذرات الرمال.. شعرت بحرارة وأنا ألمسها وأضمها بين أصابعي.. أزحت عنها الرمال برويَّة وحذر، ثم فتحتها وضوء عيني يعانق ما نُقش عليها بالهيروغليفية.

ـ التحية لك يا (أبادماك). «سيد تويلكيت» الملك العظيم (الأول) لأرض تانحسي، أسد الجنوب، ذو اليد الطولى... الملك العظيم الذي يستجيب لنداء من يدعوه، حامل السر.. ليس هناك سدود تقف أمامه، الذي يلفظ الأنفاس القائظة على أعدائه، وفي هذا تتجلى مقدرته ـ قوته الخاصة ـ التي تقضي على الأعداء بمساعدته... هو الذي يقضي على جميع الذين يُضمرون الخيانة والشر ضده، المعطي للعرش.. عرش السلطة لذلك الذي يطلبه وملك الغضب... العظيم بمظهره.

ابتسمت ثم أغلقتها، وقلت لـ(إسماعيل):

ـ حصلنا على مُبتغانا.